

إن الحسنات يذهبن السيئات

(١ ذو القعدة ١٤٣٦ هـ)

لأبي عبد الرحمن

عبد الرقيب بن علي بن أحمد أبو عبد الرحمن الكوكباني

كان الله له في الدارين

بمسجد أم القرى صنعاء

حرسها الله

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا
إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما
كثيرا، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١)،
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ
مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ
رَقِيبًا﴾^(٢)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ
أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣). أما
بعد:

^(١) سورة آل عمران: (١٠٢).

^(٢) سورة النساء: (١).

^(٣) سورة الأحزاب: (٧٠-٧١).

فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، علمتم -بارك الله فيكم- أن من أعظم فضائل الشهر الكريم ومناقبه: غفران الذنوب، والتجاوز عن السيئات من الله عز وجل. وسمعت قول النبي عليه الصلاة والسلام مراراً: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه^(٥): عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

فإذا كان هذا الشهر المبارك قد انسلخ مرتحلاً بأعمال بني آدم فلا يستغني العاقل من الناس عن سلوك الأسباب التي يستجلب بها مرضاة الله وغفران الله لذنوبه وستره لعيوبه على سائر العام والسنة ومدار العام. وإن المتأمل في العبادات والمعاملات التي شرعها الله لعباده يجد لها ارتباطاً وثيقاً بمغفرة الذنوب، ويجد لها

^(٤) سورة آل عمران: (١٠٢).

^(٥) أخرجه البخاري (٣٧) ومسلم (٧٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أثراً إيجابياً في سيئات العبد تمحوها. ﴿إِنَّ الْحُسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾^(٦) [هود: ١١٤]

[١١٤]

فلو تأملنا في العبادات الشرعية والمعاملات الشرعية لوجدنا أن الفطن من الناس يستطيع أن يتخذ منها أسباباً نافعة في محو ذنوبه وغفران سيئاته وتجاوزو الله عن خطيئاته. انظروا إلى الإسلام الذي يعتنقه جميعنا بحمد الله. هذا الإسلام يجب ما قبله ويهدم ما قبله.

في صحيح مسلم^(٧) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: ... فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: ابسط

^(٦) عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبره فأَنزَلَ اللهُ عز وجل: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ، إِنَّ الْحُسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم». (أخرجه البخاري (٥٢٦) ومسلم ((٢٧٦٣)).

قال علي بن محمد الخازن رحمه الله: قال العلماء: الصغائر من الذنوب تكفرها الأعمال الصالحات مثل الصلاة والصدقة والذكر والاستغفار ونحو ذلك من أعمال البر وأما الكبائر من الذنوب فلا يكفرها إلا التوبة النصوح ولها ثلاث شرائط: الشرط الأول: الإقلاع عن الذنب بالكلية. الثاني: الندم على فعله. الثالث: العزم التام أن لا يعود إليه في المستقبل، فإذا حصلت هذه الشرائط صحت التوبة وكانت مقبولة إن شاء الله تعالى. ("لباب التأويل في معاني التنزيل" / ٢ / ص ٥٠٧).

^(٧) أخرجه مسلم (١٢١).

يمينك فلا بايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشتري، قال: «تشتري بماذا؟» قلت: أن يغفر لي، قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟».

الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، أو من بلاد المعصية إلى بلاد الطاعة^(٨).

(٨) أ الهجرة على قسمين: الهجرة المعنوية، تعني: ترك المعاصي، والهجرة الحسية، تعني: ترك البلد.

والدليل على هذا التقسيم حديث مالك بن يخامر، عن ابن السعدي، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل». فقال معاوية، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمرو بن العاص: إن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «إن الهجرة خصلتان: إحداهما أن تهجر السيئات، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله. ولا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه، وكفي الناس العمل». (أخرجه الإمام أحمد (١٦٧١) والبخاري (١٠٥٤) والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٢٠)، سنده حسن).

فالهجرة المعنوية هي كما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أن تهجر السيئات). وجاء من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه». (أخرجه البخاري (١٠)).

وهذه الهجرة المعنوية باقية إلى يوم القيامة.

وأما الهجرة الحسية وهي ترك البلد، وهي تنقسم إلى أربعة أقسام:

الأول: الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام

وهذه المهجرة واجبة إلى يوم القيامة على من لم يقدر على إقامة دينه في بلده، إلى بلد أحسن منه.

قال الإمام البيهقي رحمه الله في "المنهاج في شعب الإيمان" (١٨٢ / ٢): ومن الشُّح على الدِّين أنَّ المؤمن إذا كان من قوم لا يستطيع أن يوفِّي الدِّين حقوقه بينَ ظهرائهم، ويخشى أن يفتنوه عن دينه، وكان إذا فارقهم يجد لنفسه مأمنًا يتبوأ، ويكون فيه أحسن حالاً منه بينَ هؤلاء لم يقم بينَ ظهرائهم، وهاجر إلى حيث يعلم أنَّه خير له وأوفق، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، فيدخل في هذا من هاجر إلى الله ورسوله صَلَّى الله عليه وسلَّم في حياته ليلقاه ويصحبه ويجاهد معه، ومن هاجر بعده إلى حيث يستطيع إظهار دينه ونصب أعلام شريعته فيه، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَارَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

فدخل في ذلك الرجوع إليه حيًّا في سؤاله عما أشكل، والرجوع بعد وفاته إلى سنته، وما بلغ النَّاسَ عن ربِّه جلَّ جلاله، فكذا يدخل في المهجرة إليه الوجهان اللذان ذكرتهما. والله أعلم.

فإن أقام بدار الجهالة ذليلاً مستضعفاً وهو يقدر على الانتقال إلى حيث يخالفها فقد ترك -في قول كثير من العلماء- فرضاً واجباً؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا * وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٧-١٠٠]. ويوعد تارك المهجرة من البلد الذي يكون مستضعفاً فيه إذا كان قادراً على مثل هذا الوعيد فثبت أنها فريضة لازمة أيضاً. اهـ

الثاني: الانتقال من بلد البدعة إلى بلد السنة

وهي كما فعله الإمام الشافعي رحمه الله حيث خرج من العراق إلى مصر لما استفحلت دعوة الدولة إلى خلق القرآن. وهي مشروعة إلى قيام الساعة.

ولو تأمل المتأمل في الإيمان^(٩) الذي هو صلة وثيقة بين العبد وربّه، لرأى أنه من أعظم أسباب محو الخطايا والذنوب. قال الله عز وجل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾^(١٠) [طه: ٨٢].

وقال ملا علي القاري رحمه الله: ومنها الهجرة من ديار البدعة إلى بلاد السنة. ("مرقاة المفاتيح" / ١ ص ١٠٩).

الثالث: الانتقال من بلد المعصية إلى بلد الطاعة

كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في قصة من قتل مائة نفس: أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: «... انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء». الحديث. (أخرجه البخاري (٣٤٧٠) ومسلم (٢٧٦٦)).

الرابع: الانتقال من بلد الفتن إلى بلد الأمن

وهي كهجرة الصحابة من مكة إلى الحبشة. وكلا البلدين بلد كفر وشرك غير أن مكة بلد الفتن كما قاله جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: (فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا)، وأما الحبشة بلد الأمن كما قاله النجاشي: (فأنتم سيوم بأرضي - والسيوم الآمنون). (أخرجه الإمام أحمد (٢٢٤٩٨) / ط. الرسالة، وحسنه الإمام الوادعي رحمه الله في "الصحيح المسند" رقم (١٦٥١) / دار الآثار).

^(٩) قال الإمام الحافظ ابن أبي زمين رحمه الله: ومن أقوال أهل السنة: أن الإيمان إخلاص لله بالقلوب، وشهادة بالألسنة، وعمل بالجوارح؛ على نية حسنة، وإصابة السنة... أن الإيمان درجات ومنازل يتم ويزيد وينقص، ولو لا ذلك استوى الناس فيه، ولم يكن للسابق فضل على المسبوق^(٩). انتهى.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: فإن الإيمان ليس مجرد التصديق كما تقدم بيانه وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد^(٩). انتهى.

وقال ابن حجر رحمه الله: وما نقل عن السلف صرح به عبد الرزاق في مصنفه عن سفيان الثوري ومالك بن أنس والأوزاعي وابن جريج ومعمّر وغيرهم ، وهؤلاء فقهاء الأمصار في عصرهم . وكذا نقله أبو القاسم اللالكائي في "كتاب السنة" عن الشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبي عبيد وغيرهم من الأئمة ، وروى بسنده الصحيح عن البخاري قال: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحدا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ، ويزيد وينقص . حاتم وأطرب ابن أبي واللالكائي في نقل ذلك بالأسانيد عن جمع كثير من الصحابة والتابعين وكل من يدور عليه الإجماع من الصحابة والتابعين. ("فتح الباري" (كتاب الإيمان/ باب قول النبي: بني الإسلام على خمس / ١ / ص ٦٦/ دار السلام).

بعد أن ذكر حديث وفد عبد القيس؛ قال شيخ الإسلام رحمه الله: وأجمع السلف أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص. ومعنى ذلك أنه قول القلب وعمل القلب، ثم قول اللسان وعمل الجوارح. ("مجموع الفتاوى" / ٧ / ص ٦٧٢/ مكتبة ابن تيمية).

^(١٠) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ أي: كل من تاب إلى تبت عليه من أي ذنب كان، حتى إنه تعالى تاب على من عبد العجل من بني إسرائيل. وقوله: ﴿تاب﴾ أي: رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية. وقوله: ﴿وآمن﴾ أي: بقلبه ﴿وعمل صالحاً﴾ أي: بجوارحه.

وقوله: ﴿ثم اهتدى﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي ثم لم يشكك. وقال سعيد بن جبیر: ﴿ثم اهتدى﴾ أي: استقام على السنة والجماعة. وروي نحوه عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف. وقال قتادة: ﴿ثم اهتدى﴾ أي: لزم الإسلام حتى يموت. وقال سفيان الثوري: ﴿ثم اهتدى﴾ أي: علم أن لهذا ثواباً. وثم هاهنا لترتيب الخبر على الخبر.

(انتهى "تفسير القرآن العظيم" / ٥ / ص ٣٠٨-٣٠٩).

فالإيمان له أثر إيجابي في السيئات يحموها الله به. الإيمان بالله إيماناً صادقاً، وبملائكته كتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله سبحانه وتعالى.

نعم، لو تأمل المتأمل في التوحيد وإخلاص العبادة لله، والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه^(١١)،

لرأى أن التوحيد له أعظم الأثر في غفران ذنوب العبد وتجاوز الله عن سيئات العبد^(١٢).

^(١١) قال شيخ الإسلام رحمه الله: العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبرّ الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة. وكذلك حبّ الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه؛ والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله. ("مجموع الفتاوى" / ١٠ / ص ١٤٩ - ١٥٠).

^(١٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يا رب. فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول: لا يارب فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقول : احضر وزنك. فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه

روى الترمذي (٣٥٤٠) والطبراني في الأوسط (٤٣٠٥) من حديث أنس بن مالك^(١٣)، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة».

السجلات فقال: إنك لا تظلم قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء». (أخرجه أحمد (٦٩٩٤) والترمذي (٢٦٣٩) / صحيح).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فهذا لما اقترن بهذه الكلمة من الصدق والإخلاص والصفاء وحسن النية، إذ الكلمات والعبادات وإن اشتركت في الصورة الظاهرة، فإنها تتفاوت بحسب أحوال القلوب تفاوتاً عظيماً. ("مجموع الفتاوى" / ١٠ / ص ٧٣٥).

^(١٣) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) والطبراني في الأوسط (٤٣٠٥) وهو حديث حسن.

ومما يدل على ذلك أيضاً حديث معاذ رضي الله عنه، قال: كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له غفير، فقال: «يا معاذ، هل تدري حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس؟ قال: «لا تبشروهم، فيتكلموا». (أخرجه البخاري (٢٨٥٦) ومسلم (٣٠)).

قوله: (لا تشرك بي شيئاً) يدل على توحيد الله، أن تفردوا الله بالخوف والرجاء^(١٤) والإنابة والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والتوكل^(١٥) والرغبة والرغبة النذر والذبح وكل أنواع العبادة، أن تفردوا الله بها وحده لا شريك له. هذا فيه مغفرة الذنوب.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١٦) [النساء:

[٤٨].

^(١٤) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ومن رجا شيئاً سوى الله خذل من جهته وحرم خيره. هذه سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً. ("بدائع الفوائد" / ٢ / ص ٤٧٠).

^(١٥) قال شيخ الإسلام رحمه الله: فهو سبحانه كاف عبده في إزالة الشرّ، وفي إنالة الخير. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر/ ٣٦]. ومن توكل على غير الله ورجاه خذل من جهته وحرم، ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتُ لَبِيتَ الْعَنْكَبُوتُ﴾ [العنكبوت/ ٤١]. إلخ. ("مجموع الفتاوى" / ٨ / ص ١٦٥).

^(١٦) قال شيخ الإسلام رحمه الله: اعلم رحمك الله أن الشرك بالله أعظم ذنب عصي الله به. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء/ ٤٨]. وفي "الصحيحين" أنه سئل أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك». [أخرجه البيهاري (٤٤٧٧) ومسلم (٢٦٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه]. والند المثل، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة/ ٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلٌ مِمَّنْ يَكْفُرُكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر/ ٨]. فمن جعل لله ندا من خلقه فيما يستحقه عز وجل من الألهية والربوبية فقد كفر بإجماع الأمة. ("مجموع الفتاوى" / ٨ / ص ٨٨).

انظروا إلى أثر التوحيد في ذنوب العبد. والذنوب تتلف على الإنسان نفسه. هي كالنار المستعرة المشتعلة المضطربة بين جنبيك تتلف قلبك، وتتلف عليك فؤادك وبصرك وسمعك، فإن لم تحارب هذه النيران وهذا للهب المشتعل أتلفك أو أوشك أن تتلفك^(١٧). فحاول إن تحافظ على توحيد الله إياك أن تكون متعلق القلب بغير الله في الاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذبح^(١٨) والنحر

^(١٧) قال شيخ الإسلام رحمه الله: فالإنسان إذا أصابته المصائب بذنوبه وخطاياه كان هو الظالم لنفسه، فإذا تاب واستغفر جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب، والذنوب مثل أكل السم . فهو إذا أكل السم مرض أو مات فهو الذي يمرض ويتألم ويتعذب ويموت، والله خالق ذلك كله، وإنما مرض بسبب أكله، وهو الذي ظلم نفسه بأكل السم . فإن شرب الترياق النافع عافاه الله، فالذنوب كأكل السم، والترياق النافع كالتوبة النافعة، والعبد فقير إلى الله تعالى في كل حال، فهو بفضلها ورحمته يلهمه التوبة، فإذا تاب تاب عليه، فإذا سأله العبد ودعاه استجاب دعاءه . ("مجموع الفتاوى" / ٨ ص ٢٤٠).

^(١٨) قال شيخ الإسلام رحمه الله: كان عباد الشياطين والأصنام يذبحون لها الذبائح أيضاً. فالذبح للمعبود غاية الذل والخضوع له، ولهذا لم يجز الذبح لغير الله ولا أن يسمى غير الله على الذبائح. وحرم سبحانه ما ذبح على النصب وهو ما ذبح لغير الله، وما سمي عليه غير اسم الله وإن قصد به اللحم لا القربان. ولعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ذبح لغير الله، ونهى عن ذبائح الجن، وكانوا يذبحون للجن. بل حرم الله ما لم يذكر اسم الله عليه مطلقاً، كما دل على ذلك الكتاب والسنة في غير موضع. ("مجموع الفتاوى" / ١٧ ص ٤٨٤ - ٤٨٥).

والرجاء والخوف والرغبة والرغبة والحلف وسائر أنواع العبادة. هذه لحياتك ومماته، ولدنياك ودينك وأخراك. فالشرك في ذلك خسارة الدنيا والدين^(١٩).

نعم، لو تأمل المتأمل في التوبة إذا كان تَوَّاباً إلى الله رجَّاء في ليله ونهاره وإنها تحو الذنوب كلما طرأت على صاحبها فلا يبقى من هذه السيئة.

عن أبي ذر رضي الله عنه^(٢٠) عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي- وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم. يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم»^(٢١). الحديث.

^(١٩) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فلا يلقي في الكرب العظام إلا الشرك ولا ينجي منها إلا التوحيد، فهو مفرع الخليفة وملجؤها وحصنها وغيائها، وبالله التوفيق. ("الفوائد" / ص ٥٣).

^(٢٠) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

^(٢١) قال الإمام ابن دقيق العيد رحمه الله: وقوله: "إنكم تخطئون بالليل والنهار" في هذا الكلام من التوبيخ ما يستحي منه كل مؤمن وكذلك أن الله خلق الليل لبطاع فيه ويعبد بالإخلاص حيث تسلم الأعمال فيها غالباً من الرياء والنفاق أفلا يستحي المؤمن أن لا ينفق الليل والنهار [في الطاعة] فإنه خلق مشهوداً من الناس فينبغي من كل فطن أن يطيع الله فيه أيضاً ولا يتظاهر بين الناس بالمخالفة وكيف يحسن بالمؤمن أن يخطئ سراً أو جهراً لأنه سبحانه وتعالى قد قال بعد ذلك: "وأنا أغفر الذنوب جميعاً" فذكر الذنوب بالألف واللام التي

عن أبي موسى رضي الله عنه^(٢٢): عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٢٣).

فلماذا لا تكون تَوَّابِينَ أَوْابِينَ رَجَّاعِينَ مع أننا أصبحنا خطائين مذنبين بالليل والنهار. فليلهج العبد في التضرع بين الحين والآخر إلى الله أن يستر عيوبه ويغفر ذنوبه وأن يكشف عنه مغبة ذنوبه وسيئاته فإنها تكتسب العمى والبكم والصمم وطمس البصائر^(٢٤).

للتعريف وأكدها بقوله: "جميعاً" وإنما قال ذلك قبل أمره إيماناً بالاستغفار لئلا يقنط أحد من رحمة الله لعظم ذنب ارتكبه. ("شرح الأربعين النووية" / لابن دقيق العيد / ص ٨٩).

وقال الإمام ابن رجب رحمه الله: هذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئاً من ذلك كله، وأن من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق، فإنه يحرمهما في الدنيا، ومن لم يتفضل الله عليه بمغفرة ذنوبه أو بقتة خطايه في الآخرة. ("جامع العلوم والحكم" / ٢ / ص ٣٧-٣٨).

^(٢٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٩).

^(٢٣) قال الإمام ابن رجب رحمه الله: فالواجب على المؤمن المبادرة بالأعمال الصالحة قبل أن لا يقدر عليها ويحال بينه وبينها، إما بمرض أو موت، أو بأن يدركه بعض هذه الآيات التي لا يقبل معها عمل. ("جامع العلوم والحكم" / ٢ / ص ٣٩٠).

^(٢٤) قال الإمام ابن القيم رحمه الله في عقوبات المعاصي: ومنها: جعل القلب أصم لا يسمع الحق، أبكم لا ينطق به، أعمى لا يراه، فتصير النسبة بين القلب وبين الحق الذي لا ينفعه غيره، كالنسبة بين أذن الأصم

انظروا إلى صفح الله عن عبده إذا جاء تائباً ولو جاء يحمل أوزاراً كباراً،
جاء وقد قتل تسعة وتسعين نفساً. وهذا جرم وأي جرم، ذنب وأي ذنب؟^(٢٥)

والأصوات، وعين الأعمى والألوان، ولسان الأخرس والكلام، وبهذا يعلم أن العمى والصمم والبكم للقلب بالذات: الحقيقة، وللجوارح بالعرض والتبعية ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ [سورة الحج: ٤٦]. ("الجواب الكافي" / ص ١١٧).

^(٢٥) قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وهذا تهديد شديد ووعد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله، حيث يقول، سبحانه، في سورة الفرقان: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾ الآية [الفرقان: ٦٨] وقال تعالى: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً﴾ إلى أن قال: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ [الأنعام: ١٥١]. والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً. من ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء" وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو داود، من رواية عمرو بن الوليد بن عبدة المصري، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يزال المؤمن معقناً صالحاً ما لم يصب دماً حراماً، فإذا أصاب دماً حراماً بلع" - إلى قوله: -

والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين ربه عز وجل، فإن تاب وأناب وخشع وخضع، وعمل عملاً صالحاً، بدل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن طلبته.

(انتهى من "تفسير القرآن العظيم" / ٢ / ص ٣٧٦-٣٨٠).

حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه^(٢٦): أن نبي الله صلى الله عليه و سلم قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب فأثاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا^(٢٧)، فقتله، فكمل به مائة^(٢٨). ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم^(٢٩)، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟^(٣٠) انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسا يعبدون

^(٢٦) أخرجه البخاري (٣٤٧٠) ومسلم (٢٧٦٦).

^(٢٧) قال ابن حجر رحمه الله: وفيه فضل العالم على العابد لأن الذي أفناه أولاً بأن لا توبة له غلبت عليه العبادة فاستعظم وقوع ما وقع من ذلك القاتل من استجرائه على قتل هذا العدد الكثير وأما الثاني فغلب عليه العلم فأفناه بالصواب ودلّه على طريق النجاة. ("فتح الباري" / ٦ / ص ٥١٨).

^(٢٨) قال ابن حجر رحمه الله: ثم تداركه الله فندم على ما صنع فرجع يسأل. ("فتح الباري" / ٦ / ص ٥١٧).

^(٢٩) قال ابن حجر رحمه الله: وفيه إشارة إلى قلة فطنة الراهب لأنه كان من حقه التحرز ممن اجترأ على القتل حتى صار له عادة بأن لا يواجهه بخلاف مراده وأن يستعمل معه المعارض مداراة عن نفسه هذا لو كان الحكم عنده صريحاً في عدم قبول توبة القاتل فضلاً عن أن الحكم لم يكن عنده إلا مظنوناً. ("فتح الباري" / ٦ / ص ٥١٧).

^(٣٠) قال ابن حجر رحمه الله: وفي الحديث مشروعية التوبة من جميع الكبائر حتى من قتل الأنفس. ويحمل على أن الله تعالى إذا قبل توبة القاتل تكفل برضا خصمه. ("فتح الباري" / ٦ / ص ٥١٧).

الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء^(٣١). فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاخترصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب^(٣٢). فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط^(٣٣). فأتاه ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم^(٣٤). فقال: قيسوا

^(٣١) قال ابن حجر رحمه الله: وفيه فضل التحول من الأرض التي يصيب الإنسان فيها المعصية لما يغلب بحكم العادة على مثل ذلك إما لتذكره لأفعاله الصادرة قبل ذلك والفتنة بها وإما لوجود من كان يعينه على ذلك ويحضه عليه ولهذا قال له الأخير ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ففيه إشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية والتحول منها كلها. ("فتح الباري" / ٦ / ص ٥١٧).

^(٣٢) قال ابن حجر رحمه الله: وفيه أن الملائكة الموكلين ببني آدم يختلف اجتهدهم في حقهم بالنسبة إلى من يكتبونه مطيعاً أو عاصياً وأنهم يختصمون في ذلك حتى يقضي الله بينهم. ("فتح الباري" / ٦ / ص ٥١٧).

^(٣٣) بعد أن روى حديث الشفاعة قال الإمام ابن خزيمة رحمه الله: هذه اللفظة (لم يعملوا خيراً قط) من الجنس الذي يقول العرب: ينفي الاسم عن الشيء لنقصه عن الكمال والتمام. فمعنى هذه اللفظة على هذا الأصل، لم يعملوا خيراً قط، على التمام والكمال، لا على ما أوجب عليه وأمر به، وقد بينت هذا المعنى في مواضع من كتبي. ("التوحيد" / لابن خزيمة / ٢ / ص ٧٣٢).

^(٣٤) قال ابن حجر رحمه الله: واستدل به على أن في بني آدم من يصلح للحكم بين الملائكة إذا تنازعوا وفيه حجة لمن أجاز التحكيم وأن من رضي الفريقان بتحكيمه فحكمه جائز عليهم. ("فتح الباري" / ٦ / ص ٥١٨).

ما بين الأرضين، فألى أيتهما كان أدنى فهو له^(٣٥). ففاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة^(٣٦).

الرجل يستمع لنصح ذاك العالم فتوجه بصدق^(٣٧) وضراعة وأوبة تقصف الحوبة إلى بلد الطاعة وبلد أهل الطاعة.

لم يعمل خيرا قط في أرض الطاعة ولكن صدق توبته قلبه محاً عنه هذا الماضي كله^(٣٨).

^(٣٥) قال ابن حجر رحمه الله: وفيه أن للحاكم إذا تعارضت عنده الأحوال وتعددت البيّنات أن يستدل بالقرائن على الترجيح. ("فتح الباري" / ٦ / ص ٥١٨).

^(٣٦) أخرجه البخاري (٣٤٧٠) ومسلم (٢٧٦٦).

^(٣٧) ولن يضيع الله صدق عبده الصادق في قصده، كما في حديث شداد بن الهاد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأعرابي اتبعه لنيل الشهادة والجنة: «إن تصدق الله يصدقك». فيه قصة رائعة، أخرجها النسائي (٤/ ص ٦٠) وصححه الإمام الألباني رحمه الله في "صحيح الترغيب" (رقم ١٣٣٨) والإمام الوادعي رحمه الله في "الصحيح المسند" (رقم ٤٧٤) / دار الآثار.

^(٣٨) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: والتحقيق في المسألة أن القتل يتعلق به ثلاثة حقوق: حق لله وحق للمقتول، وحق للولي، فإذا سلم القاتل نفسه طوعاً واختياراً إلى الولي ندماً على ما فعل، وخوفاً من الله، وتوبة نصوحاً، سقط حق الله بالتوبة، وحق الولي بالاستيفاء أو الصلح أو العفو، وبقي حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن، ويصلح بينه وبينه، فلا يبطل حق هذا، ولا تبطل توبة هذا. ("الجواب الكافي" / ص ١٤٦-١٤٧).

كن رجّاعاً إلى الله ومنيباً إليه. فإن الذنوب لها ثقل لا تطيقه^(٣٩).

امرأة من النساء العاقلات ألّمت بذنب ولكنها أرادت أن تلقى الله طاهرة مطهرة جاء إلى رسول الله.

عن بريدة^(٤٠) رضي الله عنه: ... فجاءت الغامدية، فقالت: يا رسول الله، إني قد زنيت فطهرني، وإنه ردها، فلما كان الغد، قالت: يا رسول الله، لم تردني؟ لعلك أن تردني كما رددت ماعزاً، فوالله إني لحبلى، قال: «إما لا فاذهبي حتى تلدي»، فلما ولدت أتنه بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال: «اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه»، فلما فطمته أتنه بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا

^(٣٩) نعم، الذنوب لها ثقل. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَلَةٍ لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول تعالى: وإن تسأل ذات ثقل من الذنوب من يحمل عنها ذنوبها وتطلب ذلك لم تجد من يحمل عنها شيئاً منها ولو كان الذي سألته ذا قرابة من أب أو أخ. ("جامع البيان" ٢٠/ ص ٤٥٥).

وقال الإمام القرطبي رحمه الله: قوله تعالى: (ولا تزر وازرة وزر أخرى)، أي: لا تحمل حاملّة ثقل أخرى، أي لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، بل كل نفس مأخوذة بجرمها ومعاقبة بإثمها. وأصل الوزر الثقل، ومنه قوله تعالى: ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾. وهو هنا الذنب، كما قال تعالى: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾. ("الجامع لأحكام القرآن" ٧/ ص ١٥٧).

^(٤٠) أخرجه مسلم (١٦٩٥).

نبي الله قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها. فيقبل خالد بن الوليد بحجر، فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبّها، فسمع نبي الله صلى الله عليه وسلم سبّه إياها، فقال: «مهلا يا خالد، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له»، ثم أمر بها فصلى عليها، ودفنت.

فالتوبة يستطيعها كل واحد منا أن يجمع بين الحاضر والماضي والمستقبل والمستقبل في توبته. فالماضي فتوبته بالندم على ما مضى-^(٤١). والحاضر فتوبته بالإقلاع عن الذنب دون التسويف ودون تعليق الأمور إلى المستقبل. والمستقبل التوبة فيه بالعزم على ألا يتركب الإنسان ذلك الذنب^(٤٢). وإن قدر الله شيئاً

^(٤١) قال الإمام ابن مفلح رحمه الله: والتوبة هي: الندم على ما مضى من المعاصي والذنوب، والعزم على تركها دائماً لله عز وجل لا لأجل نفع الدنيا أو أذى، وأن لا تكون عن إكراه أو إلقاء، بل اختياراً حال التكليف. ("الآداب الشرعية" / ص ١١٤).

^(٤٢) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فحقيقة التوبة هي الندم على ما سلف منه في الماضي والإقلاع عنه في الحال والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل. والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة فإنه في ذلك الوقت يندم ويقلع ويعزم. فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خلق لها وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة. ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شرائط له. ("مدارج السالكين" / ١ / ص ١٨٢).

واستزلك الشيطان ترجع من قريب^(٤٣). إِنْ قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

تأملوا بآرك الله فيكم في متابعة هدي النبي عليه الصلاة والسلام وإن خالفتمك الأسلاف والأعراف والعادات والتقاليد فيكون العبد صادقاً في متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤٤). نعم هذا يرجي أن يغفر الله له ذنوبه.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٤٥) [آل عمران: ٣١].

^(٤٣) كما قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

^(٤٤) كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ولا تستصعب مخالفة الناس والتحيز إلى الله ورسوله ولو كنت وحدك، فإن الله معك وأنت بعينه وكلاءته وحفظه لك. وإنما امتحن يقينك وصبرك. وأعظم الأعوان لك بعد عون الله: التجرد من الطمع والفرع. فمتى تجردت منها هان عليك التحيز إلى الله ورسوله وكنت دائماً في الجانب الذي فيه الله ورسوله. ("الفوائد" / لابن القيم / ص ١١٦).

^(٤٥) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحَبَّ. اهـ- ("تفسير القرآن العظيم" / ١ / ص ٤٩٤-٤٩٥ / دار الصديق).

إن محبة الله ليست مجرد الدعوى^(٤٦). شعارها التوحيد، وهذا يستلزم أن تخالف من ألفه الناس إذا خالفوا شرع الله، وأن تخالف ما ألفه هواك إذا خالف هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وأن تخالف العادات والتقاليد في مسألة يحصل فيها خلاف هدي رسول الله. فأى شيء تقدمه: هدي الرسول الكريم أم ما عرفته في مجتمعه أو في أسرتك أو في بني مهنتك وجماعتك ومن صار على فكرتك؟^(٤٧) كن متبعاً لهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن هذا من أسباب مغفرة الذنوب، وستر العيوب، والتجاوز عن السيئات.

وليتأمل في الصلاة التي هي أعظم أركان الدين بعد الشهادتين. لو تأملنا فيها وصلتها الوثيقة للذنوب والتجاوز عنها. تأملوا في هذا الحديث العظيم.

^(٤٦) قال شيخ الإسلام رحمه الله: وإنما كمال محبته وتعظيمه في متابعتة وطاعته واتباع أمره، وإحياء سنته باطنًا وظاهرًا، ونشر ما بعث به، والجهاد على ذلك بالقلب واليد واللسان. فإن هذه طريقة السابقين الأولين، من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان. اهـ ("اقتضاء الصراط المستقيم" / ٢ / ص ١٢٤ / مكتبة الرشد).

^(٤٧) قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات / ٢].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سبباً لحبوط أعمالهم فكيف تقديم آرائهم، وعقولهم، وأذواقهم، وسياساتهم، ومعارفهم على ما جاء به، ورفعها عليه؟ أليس هذا أولى أن يكون محبطاً لأعمالهم؟! ("إعلام الموقعين" / النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله / ١ / ص ٤٩).

روى الشيخان في صحيحيهما^(٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك يبقى من درنه؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيئاً. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا»^(٤٩).

أرأيت أن محافظتك على الصلاة واجتهادك في مداومة الصلاة والقيام بالصلاة في الليل والنهار هذا من أعظم مكفرات الذنوب.

نعم، تأمل في ملابسة الصلاة فيما قبلها وفي أثنائها وفيما بعدها تجد أن لها أيضاً صلة وثيقة بمغفرة الذنوب.

^(٤٨) أخرجه البخاري (٥٢٩) ومسلم (١٥٥٤).

^(٤٩) قال الإمام ابن رجب رحمه الله: هذا مثل ضربه النبي - صلى الله عليه وسلم - لمحو الخطايا بالصلوات الخمس، فجعل مثل ذلك مثل من ببابه نهر يغتسل فيه كل يوم خمس مرار، كما أن درنه ووسخه ينقى بذلك حتى لا يبقى منه شيء، فكَذلك الصلوات الخمس في كل يوم تمحو الذنوب والخطايا حتى لا يبقى منها شيء.

واستدل بذلك بعض من يقول: إن الصلاة تكفر الكبائر والصغائر، لكن الجمهور القائلون بأن الكبائر لا يكفرها مجرد الصلاة بدون توبة، يقولون: هذا العموم خص منه الكبائر بما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، قال: ((الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، ما اجتنب الكبائر)). وفيه - أيضاً -: عن عثمان، عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، قال: ((ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها؛ إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم تؤت كبيرة وكذلك الدهر كله)). ("فتح الباري" / لابن رجب ٤/ ص ٢٢١-٢٢٢).

تأمل في الأذان الذي لا يشرع إلا للدعاء إلى الصلاة، الأذان لو رددت كلمات المؤذن وقلت الدعاء عقب الأذان كان هذا من أسباب كفارة الذنوب.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما^(٥٠)، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة».

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه^(٥١) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من قال حين يسمع المؤذن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله رضيت بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالإسلام ديناً^(٥٢) غفر له ذنبه».

هذا في الأذان، فكيف بما بعد الأذان؟

^(٥٠) أخرجه مسلم (٣٨٤).

^(٥١) أخرجه مسلم (٣٨٦).

^(٥٢) هذه المسائل الثلاثة هي أصول الإسلام. قال الإمام ابن القيم رحمه الله بعد ذكر هذا الحديث: فجعل الرضى به قرين الرضى بدينه ونبيه، وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام التي لا يقوم إلا بها وعليها. ("مدارج السالكين" / ٢ / ص ١٨٥).

الناس بعد الأذان يتوضأون، والعاقل منهم يتوضأ في بيته ليكتسب الحسنات في طريقه إلى المسجد. نعم فإذا ما توضأوا كان هذا من الكفارات للذنوب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه ^(٥٣): أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط» ^(٥٤).

نعم.

^(٥٣) أخرجه مسلم (٢٣٣).

^(٥٤) نقل الإمام النووي رحمه الله عن القاضي رحمه الله: (وَرَفَعَ الدَّرَجَاتِ) إِعْلَاءُ الْمَنَازِلِ فِي الْجَنَّةِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ تَمَامَهُ، وَالْمَكَارِهِ تَكُونُ بِشِدَّةِ الْبَرْدِ وَالْمِ الْجِسْمِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَكَثْرَةُ الْخَطَا تَكُونُ بِعُذِّ الدَّارِ وَكَثْرَةُ التَّكْرَارِ (وَأَنْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ)، قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِي: هَذَا فِي الْمَشْرَكَيْنِ مِنَ الصَّلَوَاتِ فِي الْوَقْتِ وَأَمَّا غَيْرُهُمَا فَلَمْ يَكُنْ مِنْ عَمَلِ النَّاسِ. وَقَوْلُهُ: (فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ) أَيُّ الرِّبَاطِ الْمُرْغَبِ فِيهِ، وَأَصْلُ الرِّبَاطِ الْحَبْسُ عَلَى الشَّيْءِ كَأَنَّهُ حَبَسَ نَفْسَهُ عَلَى هَذِهِ الطَّاعَةِ. قِيلَ: وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَفْضَلُ الرِّبَاطِ كَمَا قِيلَ الْجِهَادُ جِهَادَ النَّفْسِ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ الرِّبَاطُ الْمُتَيْسِّرُ الْمُمكنُ أَيُّ أَنَّهُ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّبَاطِ. هَذَا آخِرُ كَلَامِ الْقَاضِي وَكُلُّهُ حَسَنٌ إِلَّا قَوْلَ الْبَاجِي فِي أَنْتِظَارِ الصَّلَاةِ فَإِنَّ فِيهِ نَظْرًا. وَاللهُ أَعْلَمُ اهـ. ("المنهاج" / ٣ / ص ١٤٣-١٤٤ / مكتبة المعارف).

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه^(٥٥)، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده، حتى تخرج من تحت أظفاره».

عن أبي هريرة رضي الله عنه^(٥٦)، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا توضأ العبد المسلم - أو المؤمن - فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه^(٥٧) مع الماء - أو مع آخر قطر الماء -، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء -، فإذا غسل رجله خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء - أو مع آخر قطر الماء - حتى يخرج نقياً من الذنوب».

الله أكبر.

^(٥٥) أخرجه مسلم (٢٤٥).

^(٥٦) أخرجه مسلم (٢٤٤).

^(٥٧) قال الزرقاني رحمه الله: وتخصيص العين في هذا الحديث والوجه مشتمل على العين والشم والأنف والأذن لأن جنابة العين أكثر، فإذا خرج الأكثر خرج الأقل فالعين كالغاية لما يغفر، وقال الطيبي: لأن العين طليعة القلب ورائده فإذا ذكرت أغنت عن سواها. ("شرح الزرقاني على الموطأ" / ١ / ص ١٥٨).

ولذلك استحَبَّ بعض الفقهاء وقولهم وجيه أن يتوضأ العبد لكل صلاة^(٥٨) ولو كان على وضوء الصلاة الأولى لما في ذلك من التنزه من الذنوب والسيئات.

فكيف إذا كان بعد هذا يصلي ركعتين؟ أكرم بها من حظ العبد.

وعن حمran مولى عثمان^(٥٩): أنه رأى عثمان بن عفان دعا بإناء، فأفرغ على كفيه ثلاث مرار، فغسلهما، ثم أدخل يمينه في الإناء، فمضمض، واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ويديه إلى المرفقين ثلاث مرار، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجليه

^(٥٨) عن عمرو بن عامر، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ عند كل صلاة. قلت: كيف كنتم تصنعون؟ قال: يجزئ أحدنا الوضوء ما لم يحدث. (أخرجه البخاري (٢١٤)).

وعن سليمان بن بريدة، عن أبيه، أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الصلوات يوم الفتح بوضوء واحد، ومسح على خفيه. فقال له عمر: لقد صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه، قال: «عمدا صنعته يا عمر». (أخرجه مسلم (٢٧٧)).

قال الشوكاني رحمه الله: والحديث يدل على استحباب الوضوء لكل صلاة وعدم وجوبه. ("نيل الأوطار" / ١ / ص ٢٦٥).

وقال النووي رحمه الله: قال أصحابنا: ويستحب تجديد الوضوء وهو أن يكون على طهارة ثم يتطهر ثانياً من غير حدث. ("شرح النووي على مسلم" / ٣ / ص ١٧٧).

^(٥٩) أخرجه البخاري (١٥٩) ومسلم (٢٢٦).

ثلاث مرار إلى الكعبين، ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٦٠).

صلاة بعد الوضوء. ركعتان بعد الوضوء من أسباب دخول الجنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه^(٦١) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبلال عند صلاة الفجر: «يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت

^(٦٠) قال القرطبي رحمه الله: وفيه ما يدل على أن استدامة بعض النوافل، وملازمتها في أوقات وأحوال فضل فيه فضل عظيم، وأجر كثير، وإن كان النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يدم عليها، ولا لازمها، ولا اشتهر العمل بها عند أصحابه - رضي الله عنهم -، وأن ذلك لا ينكر على من لازمه ما لم يعتقد أن ذلك سنه راتبه له ولغيره، وهذا هو الذي منعه مالك حتى كره اختصاص شيء من الأيام، أو الأوقات بشيء من العبادات، من الصوم، والصلاة، والأذكار، والدعوات، إلا أن يعينه الشارع، ويدوم عليه، فأما لو دام الإنسان على شيء من ذلك في خاصة نفسه، ولم يعتقد شيئاً من ذلك، كما فعله بلال في ملازمة الركعتين عند كل أذان، وفي ملازمة الطهارة دائماً، لكان ذلك يفضي بفاعله إلى نعيم مقيم، وثواب عظيم. ("المفهم" ٢٠/ ص ١٠٤).

^(٦١) أخرجه البخاري (١١٤٩) ومسلم (٢٤٥٨).

دف نعليك بين يدي في الجنة^(٦٢)» قال: ما عملت عملاً أرجى عندي أني لم أتطهر طهوراً في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي^(٦٣).

ثم إذا شمر المسلم عن ساق الجذ بعد ما سمع الأذان، وتوضأ في بيته، وتوجه إلى بيت من بيوت الله كان هذا أيضاً من كفارة الذنوب. انظروا عبد الله إلى محطات التفقه مما يعلق بكفارات السيئات وأنت تغفل عن ذلك.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه^(٦٤) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله^(٦٥) ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطواته إحداهما تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة».

^(٦٢) قال الحافظ عبد الرحيم العراقي رحمه الله: فيه استحباب قص الرؤيا الصالحة على أصحابه، وهو كذلك. ("طرح الشريب" / ٢ / ص ٥٧).

^(٦٣) قال الحافظ عبد الرحيم العراقي رحمه الله: فيه استحباب صلاة ركعتين عقب الوضوء، وهو كذلك. ("طرح الشريب" / ٢ / ص ٥٩).

^(٦٤) أخرجه مسلم (٦٦٦).

^(٦٥) قال الإمام ابن رجب رحمه الله: وإن قوي الوضوء وحده على تكفير الخطايا فالمشي إلى المسجد والصلاة بعده تكون زيادة حسنات. ("اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملاء الأعلى" / ص ٦٦).

هل هناك فضل مثل هذا الفضل من الله على عبده المذنب المسيء الذي لا
يسلم من ذنوبه في الليل والنهار؟

فإذا ما وصل المسجد يتتصف للصلاة ويعزم على أن يقيمها بخشوعها
وركوعها وما ينبغي أن يكون عليه في مقتضى قول النبي صلى الله عليه وسلم:
«صلوا كما رأيتموني أصلي»^(٦٦)، كان هذا من أسباب مغفرة الذنوب.

وعن عثمان رضي الله عنه^(٦٧) أنه دعا بطهور فقال سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول: «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها

^(٦٦) أخرجه البخاري (٦٣١).

^(٦٧) أخرجه مسلم (٢٢٨).

وخشوعها وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها^(٦٨) من الذنوب ما لم يؤت كبيرة وذلك الدهر كله»^(٦٩).

الله أكبر. فكيف إذا قال: آمين^(٧٠)، على قول الإمام: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾
[الفاتحة: ٧].

^(٦٨) قال النووي رحمه الله بعد ذكر هذا الحديث وأمثاله: فهذه الألفاظ كلها ذكرها مسلم في هذا الباب وقد يقال إذا كفر الوضوء فماذا تكفر الصلاة وإذا كفرت الصلاة فماذا تكفر الجمعة ورمضان وكذلك صوم يوم عرفة كفارة سنتين ويوم عاشوراء كفارة سنة وإذا وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه والجواب ما أجابه العلماء أن كل واحد من هذه المذكورات صالح للتكفير فإن وجد ما يكفره من الصغائر كفره وإن لم يصادف صغيرة ولا كبيرة كتبت به حسنات ورفعت به درجات وإن صادفت كبيرة أو كبائر ولم يصادف صغيرة رجونا أن يخفف من الكبائر والله أعلم. ("شرح النووي على مسلم" / ٣ / ص ١١٣).

^(٦٩) قال الإمام ابن رجب رحمه الله: فانظر إلى كم تُيسر لك أسباب تكفير الخطايا لعلك تطهر منها قبل الموت فتلقاه طاهراً، فتصلح لمجاورته في دار السلام، وأنت تأبى إلا أن تموت على خبث الذنوب فتحتاج إلى تطهيرها في كير جهنم. يا هذا! أما علمت أنه لا يصلح لقربنا إلا طاهر؟! فإن أردت قربنا ومناجاتنا اليوم فطهر ظاهرك وباطنك لتصلح لذلك، وإن أردت قربنا ومناجاتنا غداً فطهر قلبك من سوانا لتصلح لمجاورتنا (يوم لا ينفع مال ولا بنون "إلا من أتى الله بقلب سليم)، القلب السليم الذي ليس فيه غير محبة الله، ومحبة يحبه الله، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، فما كل أحد يصلح لمجاورة الله تعالى غداً، ولا كل أحد يصلح لمناجاة الله اليوم، ولا على كل الحالات تحسن المناجاة. ("اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملائ الأعلی" / ص ٦٦-٦٧).

^(٧٠) قال ابن عبد البر رحمه الله: ومعنى "آمين" الاستجابة أي اللهم استجب لنا واسمع دعاءنا واهدنا سبيل من أنعمت عليه ورضيت عنه. ("الاستذكار" / ١ / ص ٤٧٣).

في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه^(٧١): أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا آمن الإمام، فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له^(٧٢) ما تقدم من ذنبه»^(٧٣).

نعم. عطايا متكاثرة، محطات متعددة في طريق العبد إلى الله تكفر من ذنوبه.

وهكذا في سجوده. وعن معدان بن أبي طلحة اليعمرى قال: لقيت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة أو قال: قلت: بأحب الأعمال إلى الله، فسكت. ثم سألته، فسكت. ثم سألته الثالثة فقال: سألت عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «عليك بكثرة

^(٧١) أخرجه البخاري (٧٨٠) ومسلم (٤١٠).

^(٧٢) قال ابن عبد البر رحمه الله: إنه يحتمل أن يكون أراد فمن أخلص في قوله آمين بنية صادقة وقلب خاشع ليس بساء ولا لاه فوافق الملائكة الذين هكذا دعاؤهم في السماء يستغفرون للذين آمنوا من أهل الأرض ويدعون لهم بنيات صادقة ليس عن قلوب غافلة لاهية - غفر له إن شاء الله - ما تقدم من ذنبه. ("الاستذكار" / ١ / ص ٤٧٥).

^(٧٣) (٠) قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله: فيه دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجهر بآمين ولولا جهره به لم يكن لمن يتحرى متابعتة في التأمين على سبيل المداركة طريق إلى معرفته فدل أنه كان يجهر به جهرا يسمعه من وراءه، وقد روى وائل بن حجر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ ولا الضالين قال آمين ورفع بها صوته، ورواه أبو داود بإسناده في هذا الباب. ("معالم السنن" / ١ / ص ٢٢٣).

السجود لله، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة»^(٧٤). قال معاذان ثم لقيت أبا الدرداء -رضي الله عنه- فسألته فقال لي مثل ما قال لي ثوبان^(٧٥).

هذا في السجود.

وكذلك في الدعاء . انظروا إلى الدعوات المأثورات في صلاة العبد إذا ما صلى يستغفر ربه في أثناء الصلاة.

عن عبد الله بن عمرو: عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه^(٧٦) أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: علمني دعاء أدعوه به في صلاتي. قال: «قل اللهم

^(٧٤) قال المناوي رحمه الله: (اعلم أنك) خطاب لكل من يتأتى توجيه الكلام إليه أو لمعين وهو ثوبان أو المراد العموم وإنما صدر بالأمر مؤكدا بأن حثا على التشمير إلى الإكثار من السجود الرافع للدرجات (لا تسجد لله سجدة) أي في صلاة منفردة كسجدة تلاوة أو شكر (إلا رفع الله لك بها درجة) أي منزلة عالية المقدار (وحط عنك بها خطيئة) يعني فأكثر من الصلاة لترفع درجاتك وتمحى عنك سيئاتك. ("فيض القدير" / ٢ / ص ٨).

^(٧٥) أخرجه مسلم (٤٨٨).

^(٧٦) أخرجه البخاري (٨٣٤) ومسلم (٢٧٠٥).

إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً^(٧٧) ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم^(٧٨).

نعم، هذا في الصلاة وهو دعاء بمغفرة الذنوب.

وأيضاً يقول العبد المسلم وهو ساجد واضع جبهته لله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه^(٧٩)، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «في سجوده اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه، وجله، وأوله وآخره وعلانيته وسره»^(٨٠).

^(٧٧) قال الإمام ابن دقيق العيد رحمه الله: وقوله: "إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً" دليل على أن الإنسان لا يعرى من ذنب وتقصير، -إلى قوله: - وقوله صلى الله عليه وسلم: (ولا يغفر الذنوب إلا أنت) إقرار بوحداية الباري تعالى، واستجلاب لمغفرته بهذا الإقرار كما قال تعالى: «علم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب». وقد وقع في هذا الحديث امتثال لما أثنى الله تعالى عليه في قوله: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ [آل عمران: ١٣٥]. ("إحكام الأحكام" ١/ ص ٣١٣).

^(٧٨) قال الإمام ابن حجر رحمه الله: قال الكرمانى: هذا الدعاء من الجوامع لأن فيه الاعتراف بغاية التقصير وطلب غاية الإنعام فالمغفرة ستر الذنوب ومحوها والرحمة إيصال الخيرات. ففي الأول: طلب الزحزحة عن النار. وفي الثاني: طلب إدخال الجنة وهذا هو الفوز العظيم. ("فتح الباري" ١١/ ص ١٣١-١٣٢).

^(٧٩) أخرجه مسلم (٤٨٣).

وأيضاً يقول المسلم أثناء صلاته وبعد التشهد^(٨١): «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»^(٨٢).

أبعد هذا فضائل؟ أبعد هذا خير يلتمسه العبد إلا إذا كان في عبادة الله ومرضاته.

فإذا كان بعد الصلاة هناك محطات لمغفرة الذنوب أيضاً في أذكار دبر الصلوات. لماذا يكونوا من المستعجلين ومن سرعان الناس على وجه المداومة؟ إنه يجوز من سرعان الناس على وجه الندرة لأمر يطرأ أو ذكرت شيئاً مهماً أن تقوم بعد السلام وتنصرف من المسجد. أما أن يكون هذا منهجاً لك وديداً لك لا

^(٨٠) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتي التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه وما لم يعلمه. ("مدارج السالكين" / ١ / ص ٢٨٣).

^(٨١) أخرجه مسلم (٧٧١) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

^(٨٢) أخرجه مقال الإمام ابن عبد البر رحمه الله: والدعاء بما كان يدعو به رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يمثل ويرغب فيه ففيه الأسوة الحسنة والهدى المستقيم. وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: (اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني) وهو مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فما ظنك بمن سواه في الحاجة إلى الدعاء بالمغفرة؟ وإنما بعث معلماً صلى الله عليه وسلم. ("الاستذكار" / ٢ / ص ٥٣٥).

تذكر الله ولا تأتي بأذكار دبر الصلوات فهذا لا يليق بك، نعم. كن مصليا محافظا على صلاتك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه^(٨٣)، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، وحمد الله ثلاثا وثلاثين، وكبر الله ثلاثا وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون، وقال: تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت خطيائه وإن كانت مثل زبد البحر»^(٨٤).

فكيف إذا أضاف إلى ذلك أن يجلس في حلق الذكر يسمع ما قال الله وما قال الرسول؟ كان ذلك سببا لمغفرة الذنوب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه^(٨٥)، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لله ملائكة^(٨٦) يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر»^(٨٧)، فإذا

^(٨٣) أخرجه مسلم (٥٩٧).

^(٨٤) قال الإمام ابن عبد البر رحمه الله: هذا من أحسن حديث يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضائل الذكر. والآثار في هذا الباب كثيرة جدا بمعان متقاربة وبركاتها وفائدتها العمل بها. ورحم الله الشعبي حيث قال كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به. ("التمهيد" / ٢٢ / ص ١٨).

^(٨٥) أخرجه البخاري (٦٤٠٨) ومسلم (٢٦٨٩).

وجدوا قوماً يذكرون الله^(٨٨) تنادوا: هلّموا إلى حاجتكم". قال: «فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا» قال: "فيسألهم ربهم، وهو أعلم منهم، ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك" قال: "فيقول: هل رأوني؟" قال: "فيقولون: لا والله ما رأوك؟" قال: "فيقول: وكيف لو رأوني؟" قال: "يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدا وتحميدا، وأكثر لك تسبيحا" قال: "يقول: فما يسألوني؟" قال: «يسألونك الجنة» قال: "يقول: وهل رأوها؟" قال: "يقولون: لا والله يا رب ما رأوها" قال: "يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟" قال: "يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا، وأشد لها طلبا، وأعظم فيها رغبة، قال: فمم يتعودون؟" قال: "يقولون: من النار" قال: "يقول: وهل رأوها؟" قال: "يقولون: لا والله يا رب ما رأوها" قال: "يقول: فكيف لو رأوها؟" قال: "يقولون: لو

^(٨٦) قال النووي رحمه الله: قال العلماء: معناه على جميع الروايات: أنهم ملائكة زائدون على الحفظة وغيرهم من المرتبين مع الخلائق. فهو لاء السيارة لا وظيفة لهم وإنما مقصودهم حلق الذكر. ("المناج" / ١٧ / ص ١٤).

^(٨٧) قال النووي رحمه الله: قال القاضي عياض رحمه الله: وذكر الله تعالى ضربان: ذكر بالقلب وذكر باللسان. وذكر القلب نوعان، أحدهما وهو أرفع الأذكار وأجلها: الفكر في عظمة الله تعالى وجلاله وجبروته وملكوته وآياته في سمواته وأرضه. ومنه الحديث خير الذكر الخفي والمراد به هذا. والثاني: ذكره بالقلب عند الأمر والنهي فيمثل ما أمر به ويترك ما نهى عنه ويقف عما أشكل عليه وأما ذكر اللسان مجردا فهو أضعف الأذكار ولكن فيه فضل عظيم كما جاءت به الأحاديث. ("شرح النووي على مسلم" / ١٧ / ص ١٥).

^(٨٨) قال ابن حجر رحمه الله: وفيه محبة الملائكة بني آدم واعتناؤهم بهم. ("فتح الباري" / ١١ / ص ٢١٢).

رأوها كانوا أشد منها فرارا، وأشد لها مخافة " قال: " فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم " قال: " يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء^(٨٩) لا يشقى بهم جليسهم^(٩٠) ».

انظر إلى فضيلة الصلاة وما يحتف بها من أعمال البرّ قبلها وفي أثرائها وبعدها. حديث أبي هريرة رضي الله عنه^(٩١): أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أرايتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك يبقي من درنه؟» قالوا: لا يبقي من درنه شيئاً. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا».

^(٨٩) وفي رواية: (هم القوم). قال ابن حجر رحمه الله: وفي اللام إشعار بالكمال، أي: هم القوم كل القوم. ("فتح الباري" / ١١ / ص ٢١١).

^(٩٠) قال ابن حجر رحمه الله: وهذه الجملة مستأنفة لبيان المقتضي لكونهم أهل الكمال. ("فتح الباري" / ١١ / ص ٢١١).

وقال رحمه الله: وفي هذه العبارة مبالغة في نفي الشقاء عن جليس الذاكرين. ("فتح الباري" / ١١ / ص ٢١١).

^(٩١) أخرجه البخاري (٥٢٩) ومسلم (١٥٥٤).

فكيف ببعض الناس بعد شهر رمضان لا يراعي المسجد لا يصلي إلا في العام المقبل. والله إن هذا من أسباب عدم قبول الله لعمل العبد لأن الله يقول: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٩٢) [المائدة: ٢٧].

ولا يكون من المتقين من كان تاركا للصلاة.

معاصر المسلمين، ننتقل بعد الصلاة إلى الزكاة تجدون لها ارتباطا وثيقا بمغفرة الذنوب. ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾^(٩٣) وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿^(٩٤) [التغابن: ١٧].

^(٩٢) قال شيخ الإسلام رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي من اتقاه في ذلك العمل؛ بأن يكون عملا صالحا خالصا لوجه الله تعالى وأن يكون موافقا للسنة. ("مجموع الفتاوى" / ١١ / ص ٦٦٢).

^(٩٣) والصدقة لا تنقص المال. قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». (أخرجه مسلم (٢٥٨٨) / دار ابن الجوزي).

^(٩٤) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: مهما أنفقتُم من شيء فهو يخلفه، ومهما تصدقتُم من شيء فعليه جزاؤه، ونزل ذلك منزلة القرض له، كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول: «من يقرض غير ظلوم ولا عديم». ولهذا قال: ﴿يَضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ كما تقدم في سورة البقرة: ﴿يَضَاعِفْهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: ويكفر عنكم السيئات. ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ أي: يجزي على القليل بالكثير ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: يعفو ويصفح ويغفر ويستتر، ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات. ("تفسير القرآن العظيم" / ٨ / ص ١٤١).

عن حذيفة رضي الله عنه^(٩٥) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فتنة الرجل^(٩٦) في أهله وماله وجاره، تكفرها الصلاة والصيام والصدقة»^(٩٧).

^(٩٥) أخرجه البخاري (١٨٩٥) ومسلم (١٤٤).

^(٩٦) قال الإمام ابن رجب رحمه الله: والفتنة نوعان: أحدهما: خاصة، تختص بالرجل في نفسه. والثاني: عامة، تعم الناس.

فالفتنة الخاصة: ابتلاء الرجل في خاصة نفسه بأهله وماله وولده وجاره، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]؛ فإن ذلك غالباً يلهي عن طلب الآخرة والاستعداد لها، ويشغل عن ذلك. ولما كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يخطب على المنبر، ورأى الحسن والحسين يمشيان ويعثران وهما صغيران، نزل فحملهما، ثم قال: ((صدق الله ورسوله، ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ﴾، إني رأيت هذين الغلامين يمشيان ويعثران فلم أصبر)). وقد ذم الله تعالى من أهله ماله وولده عن ذكره، فقال: ﴿لَا تِلْهَكُمُ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

فظهر بهذا: أن الإنسان يبتلى بماله وولده وأهله وبجاره المجاور له، ويفتن بذلك، فتارة يلهيه الاشتغال به عما ينفعه في آخرته، وتارة تحمله محبته على أن يفعل لأجله بعض ما لا يحبه الله، وتارة يقصر في حقه الواجب عليه، وتارة يظلمه ويأتي إليه ما يكرهه الله من قول أو فعل، فيسأل عنه ويطالب به.

فإذا حصل للإنسان شيء من هذه الفتن الخاصة، ثم صلى أو صام أو تصدق أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر كان ذلك كفارة له، وإذا كان الإنسان تسوؤه سيئته، ويعمل لأجلها عملاً صالحاً كان ذلك دليلاً على إيمانه.

وفي "مسند بقي بن مخلد"، عن رجل سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - ما الإيذان يا رسول الله؟ قال: ((أن تؤمن بالله ورسوله))، فأعادها ثلاثاً، فقال له في الثالثة: ((أحب أن أخبرك ما صريح الإيمان؟)) فقال:

انتقلوا بعد الزكاة إلى الصوم، أن الصوم تعرفون الأحاديث في ذلك: وعن أبي هريرة رضي الله عنه^(٩٨): عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

ولكن أزيدكم من هذا شيئاً، تأملوا في يوم عاشوراء وصوم المسلمين له، ماذا يكون على أعقاب هذه العبادة من ثواب الله وعطاء الله في صوم عاشوراء؟

عن أبي قتادة رضي الله عنه^(٩٩): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صِيَامُ يَوْمٍ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ»^(١٠٠). وَصِيَامُ يَوْمٍ عَاشُورَاءَ^(١٠١) أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ».

ذلك الذي أردت. فقال: ((إن صريح الإيمان إذا أسأت أو ظلمت أحدا: عبدك أو أمتك، أو واحدا من الناس، صمت أو تصدقت وإذا أحسنت استبشرت)).

وأما الفتن العامة: فهي التي تموج موج البحر، وتضطرب، ويتبع بعضها بعضا كأمواج البحر، فكان أولها فتنة قتل عثمان - رضي الله عنه -، وما نشأ منها من افتراق قلوب المسلمين، وتشعب أهوائهم وتكفير بعضهم بعضا، وسفك بعضهم دماء بعض، وكان الباب المغلق الذي بين الناس وبين الفتن عمر - رضي الله عنه -، وكان قتل عمر كسر لذلك الباب، فلذلك لم يغلق ذلك الباب بعده أبدا.

(انتهى من "فتح الباري" / لابن رجب / ٤ / ص ٢٠٢-٢٠٣).

^(٩٧) قال ابن بطال رحمه الله: قوله: (فتنة الرجل في أهله وولده وجاره) يريد ما يفتتن به من صغار الذنوب التي تكفرها الصلاة والصدقة وما جاء منه. ("شرح صحيح البخاري" / لابن بطال / ٣ / ص ٤٣٦).

^(٩٨) أخرجه البخاري (١٩٠١) ومسلم (٧٦٠).

والصوم من كفارات الذنوب إذا صام العبد الإثنين والخميس أو ثلاثة أيام من كل شهر. نعم، أن ستاً من شوال، أو صيام داود أو ما أشبه ذلك. انتقلوا بعد هذا إلى الركن الخامس من أركان الإسلام: الحج.

(٩٩) أخرجه مسلم (١١٦٢).

(١٠٠) قال القاضي الماوردي رحمه الله: وفيه تأويلان: أحدهما: إن الله تعالى يغفر له ذنوب سنتين. والثاني: إن الله تعالى يعصمه في هاتين السنتين فلا يعصي فيهما. ("الحاوي الكبير" / ٣ / ص ٤٧٢).

وقال الإمام النووي رحمه الله: معناه: يكفر ذنوب صائمه في السنتين. قالوا: والمراد بها الصغائر. وسبق بيان مثل هذا في تكفير الخطايا بالوضوء، وء وذكرنا هناك أنه إن لم تكن صغائر يرجى التخفيف من الكبائر. فإن لم يكن رفعت درجات. ("شرح النووي على مسلم" / ٨ / ص ٥١).

(١٠١) قال القرطبي رحمه الله: عاشوراء معدول عن عاشره للمبالغة والتعظيم، وهو في الأصل صفة لليلة العاشره لأنه مأخوذ من العشر الذي هو اسم العقد واليوم مضاف إليها فإذا قيل يوم عاشوراء، فكأنه قيل يوم الليلة العاشره إلا إنهم لما عدلوا به عن الصفة غلبت عليه الاسميه فاستغنوا عن الموصوف فحذفوا الليلة فصار هذا اللفظ علماً على اليوم العاشر. (كما في "فتح الباري" / لابن حجر / ٤ / ص ٢٤٥).

وقال ابن حجر رحمه الله: وعلى هذا فيوم عاشوراء هو العاشر وهذا قول الخليل وغيره. وقال الزين بن المنير: الأكثر على أن عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر الله المحرم وهو مقتضى الاشتقاق والتسمية. ("فتح الباري" / لابن حجر / ٤ / ص ٢٤٥).

عن أبي هريرة رضي الله عنه ^(١٠٢): أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما» ^(١٠٣)، والحج المبرور ^(١٠٤) ليس له جزاء إلا الجنة».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ^(١٠٥) قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم وسلم يقول: «من حج لله فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه» ^(١٠٦).

^(١٠٢) أخرجه البخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩).

^(١٠٣) قال ابن بطال رحمه الله: وقوله: (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما) يريد ما اجتنبت الكبائر (والحج المبرور) هو الذي لا رياء فيه ولا رفث ولا فسوق، ويكون بهال حلال والله أعلم. ("شرح صحيح البخاري" / لابن بطال / ٤ / ص ٤٣٥).

^(١٠٤) قال النووي رحمه الله: الأصح الأشهر أن المبرور هو الذي لا يخالطه إثم مأخوذ من البر وهو الطاعة وقيل هو المقبول ومن علامة القبول أن يرجع خيرا مما كان ولا يعاود المعاصي وقيل هو الذي لا رياء فيه وقيل الذي لا يعقبه معصية وهما داخلان فيما قبلهما ومعنى ليس له جزاء إلا الجنة أنه لا يقتصر لصاحبه من الجزاء على تكفير بعض ذنوبه بل لا بد أن يدخل الجنة والله أعلم. ("شرح النووي على مسلم" / ٩ / ص ١١٨).

^(١٠٥) أخرجه البخاري (١٥٢) ومسلم (١٣٥٠).

^(١٠٦) قال النووي رحمه الله: قال القاضي: هذا من قوله تعالى: ﴿فلا رفث ولا فسوق﴾ والرفث اسم للفحش من القول. وقيل: هو الجماع. وهذا قول الجمهور في الآية. قال الله تعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾. يقال: رفث ورفث بفتح الفاء وكسرها يرفث ويرفث وبرفث بضم الفاء وكسرها وفتحها. ويقال أيضا: أرفث بالألف. وقيل: الرفث التصريح بذكر الجماع. قال الأزهري: هي كلمة جامعة لكل ما يريده

هذه لمحة سريعة على مسألة العبادات وصلتها الوثيقة بالذنوب والسيئات من حيث المحو والتجاوز.

نسأل الله أن ينفعنا بما سمعنا.

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقراراً به وتوحيداً وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً مزيداً، أما بعد:

إذا انتقل العبد مما يقارفه من فضل الله في العبادات، إلى مسألة المعاملات بينهم وبين الناس وبين الخلق رأى العجب العجيب والصلة لذلك وثيقة لمغفرة الذنوب.

إذا عاملت والديك الذين هما سبب لوجودك كان هذا من مغفرة رب العالمين لذنوبك. فاحتسبوا رعاكم الله ما يكون منكم من بر بآبائكم

الرجل من المرأة. وكان ابن عباس يخصصه بما خوطب به النساء. قال: ومعنى (كيوم ولدته أمه) أي: بغير ذنب. وأما الفسوق فالمعصية، والله أعلم. ("شرح النووي على مسلم" ٩/ ص ١١٩).

وأمهاتكم^(١٠٧)، وإحسان وتودد إلى الوالدين، فإن هذا من أسباب مغفرة الذنوب^(١٠٨).

^(١٠٧) برّ الوالدين وشكرهما واجبان على العبد. قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤، ١٥].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال جل ذكره: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال تقديست أسأؤه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

^(١٠٨) وذلك أيضاً من أسباب الخيرية ودخول الجنة. قال عز وجل: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ تَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٥، ١٦].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن خير التابعين رجل يقال له أويس، وله والده وكان به بياض فمروه فليستغفر لكم». (أخرجه مسلم (٢٥٤٢)).

روى أحمد في مسنده^(١٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان فأنسلخ قبل أن يغفر له ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخله الجنة»^(١١٠).

وروى مسلم بعد ذلك بسنده إلى عمر رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدته هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نمت، فرأيتني في الجنة، فسمعت صوت قارئ يقرأ، فقلت: من هذا؟ قالوا: هذا حارثة بن النعمان». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كذلك البر، كذلك البر». وكان أبر الناس بأمره. (أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٢٤٠٨٠) وإسحاق في مسنده (١٠٠٤) والحميدي في مسنده (٢٨٧)/ صحيح).

^(١٠٩) أخرجه الإمام أحمد ((٧٤٥١١)/ الرسالة) وغيره، وقال الإمام الوادي رحمه الله: الحديث يرتقي إلى الصحيح لغيره. ("الصحيح المسند" رقم (١٢٨٢)/ دار الآثار).

^(١١٠) قال المناوي رحمه الله: (رغم) بكسر الغين وتفتح أي لصق أنفه بالتراب وهو كناية عن حصول غاية الذل والهوان (أنف الرجل) يعني إنسان وذكر الرجل وصف طردي وكذا يقال فيما بعده (ذكرت عنده) بالبناء للمفعول (فلم يصل علي) أي لحقه ذل وخزي مجازاة له على ترك تعظيمي أو خاب وخسر من قدر أن ينطق بأربع كلمات توجهه لنفسه عشر صلوات من الله ورفع عشر درجات وحط عشر خطيئات فلم يفعل لأن الصلاة عليه عبارة عن تعظيمه فمن عظمه عظمه الله ومن لم يعظمه أهانه الله وحقر شأنه.

قال الطيبي: والفاء استيعادية كهي في قوله تعالى ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهَا﴾ والمعنى بعيد من العاقل أن يتمكن من إجراء كلمات معدودة على لسانه فيفوز بما ذكر فلم يغتنمه حتى يموت فحقيق أن يذله الله اهـ.

وفي بعض الروايات: «فلم يغفر له».

نعم. رغم أنف هذا الرجل.

فكيف إذا كان الإنسان معاملات للناس أجمعين بالحسنى والإحسان يلتبس وجه الله؟ إن هذا أيضاً من أسباب مغفرة الذنوب^(١١١).

ورُدَّ بأن جعلها للتعقيب أولى ليفيد ذم التراخي عن تعقيب الصلاة عليه بذكره.

(ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له) أي رغم أنف من علم أنه لو كف نفسه عن الشهوات شهراً في كل سنة وأتى بها وظف له فيه من صيام وقيام غفر له ما سلف من الذنوب فقصر ولم يفعل حتى انسلخ الشهر ومضى فمن وجد فرصة عظيمة بأن قام فيه إيماناً واحتساباً عظمه الله ومن لم يعظمه حقره الله وأهانته.

(ورغم أنف رجل) أي إنه مدعو عليه أو مخبر عنه بلزوم ذل وصغار لا يطاق (أدرك عنده أبواه الكبر) قيد به مع أن خدمة الأبوين ينبغي المحافظة عليها في كل زمن لشدة احتياجها إلى البر والخدمة في تلك الحالة (فلم يدخله الجنة) لعقوبه لهما وتقصيره في حقهما وهو إسناد مجازي يعني ذل وخسر من أدرك أبويه أو أحدهما في كبر السن ولم يسع في تحصيل مآربه والقيام بخدمته فيستوجب الجنة جعل دخول الجنة بما يلبس الأبوين وما هو بسببها بمنزلة ما هو بفعلها ومسبب عنهما وتعظيمهما مستلزم لتعظيم الله. ولذلك قرن تعالى الإحسان إليهما وبرهما بتوحيده وعبادته. فمن لم يغتنم الإحسان إليهما سيما حال كبرهما فيجدير بأن يهان ويحقر شأنه.

(انتهى من "فيض القدير" / ٤ / ص ٣٤).

^(١١١) وهو أيضاً من أسباب تنفيس الكربات يوم القيامة.

روى الشيخان في صحيحيهما^(١١٢) من حديث أبي هريرة وحذيفة وأبي مسعود رضي الله عنهم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء، إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسراً، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر»، قال: «قال الله عز وجل: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه»^(١١٣).

فإذن؛ المعاملة من الدين، ولا يصح أن يفصل الدين كله بالمعاملة لأن حديث: «الدين معاملة» حديث لا يصح عن رسول الله ولا أصل له، فإن الدين عبادة ومعاملة.

عن عبد الله بن أبي قتادة، أن أبا قتادة، طلب غريباً له، فتوارى عنه ثم وجده، فقال: إني معسر، فقال: آله؟ قال: آله؟ قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «من سره أن ينجيّه الله من كرب يوم القيامة، فلينفس عن معسر، أو يضع عنه». (أخرجه مسلم (١٥٦٣)).

^(١١٢) أخرجه مسلم (١٥٦١) عن أبي مسعود و(١٥٦٢) عن أبي هريرة و(١٥٦٠) عن حذيفة رضي الله عنهم.

^(١١٣) قال القاضي العيني رحمه الله: وفيه: والحديث الذي يأتي في الباب الذي يليه: أن الرب، جل جلاله، يغفر الذنوب بأقل حسنة توجد للعبد، وذلك والله أعلم إذا حصلت النية فيها لله تعالى، وأن يريد بها وجهه وابتغاء مرضاته، فهو أكرم الأكرمين ولا يخيب عبده من رحمته، وقد قال الله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له، وله أجر كريم﴾ (الحديد: ١١). وفيه: إباحة كسب العبد لقوله: (كنت أمر فتياي). وفيه: أن العبد يحاسب عند موته بعض الحساب. وفيه: أنه إن أنظره أو وضع ساغ ذلك، وهو شرع من قبلنا، وشرعنا لا يخالفه بل ندب إليه. ("عمدة القاري" / ١١ / ص ١٩٠).

نعم الدين النصيحة^(١١٤) كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن النصيحة تتمثل في الدين كله^(١١٥)، في الصلاة والصوم والزكاة والحج وسائر أنواع المأمورات الشرعية.

نعم أيها المسلمون، فإذا المعاملة الحسنة ومن الدين والله يجازي عليها جزاء حسنا ويغفر سيئات العبد بسببها.

^(١١٤) عن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قال: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم». (أخرجه مسلم (٥٥)).

قال الإمام ابن النحاس رحمه الله: ولا شك أن من رأى أخاه على منكر ولم ينهه، فقد أعانه عليه بالتخلية بينه وبين ذلك المنكر وعدم الاعتراض عليه، وليس هذا من الدين في شيء، إذ لا يؤمن الرجل حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه، وإنما الدين النصيحة، ومن رأى إنسانا يهوي في النار ولم ينصحه فإن إثمه عليه. ("تنبيه الغافلين" / ص ٨٤).

^(١١٥) قال الإمام الذهبي رحمه الله: فتأمل هذه الكلمة الجامعة، وهي قوله: «الدين النصيحة»، فمن لم ينصح لله وللأئمة وللعمامة، كان ناقص الدين. وأنت لو دعيت، يا ناقص الدين، لغضبت. فقل لي: متى نصحت لهؤلاء؟ كلا والله، بل ليتك تسكت، ولا تنطق، أولا تحسن لإمامك الباطل، وتجترئه على الظلم وتغشه. فمن أجل ذلك سقطت من عينه، ومن أعين المؤمنين. فبالله قل لي: متى يفلح من كان يسره ما يضره؟ ومتى يفلح من لم يراقب مولاه؟ ومتى يفلح من دنا رحيله، وانقرض جيله، وساء فعله وقيله؟ فما شاء الله كان، وما نرجو صلاح أهل الزمان، لكن لا ندع الدعاء، لعل الله أن يلطف، وأن يصلحنا. آمين. ("سير أعلام النبلاء" / ١١ / ص ٥٠٠ ط. الرسالة).

انظر إذا أحسنت إلى الحيوان لو تعاملت مع الحيوان بالحسنى مما أمر الله بالإحسان إليه لا سيما عند الموت وألا يعذب وهو لا يستحق العذاب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه^(١١٦): أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بيننا رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش. فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي. فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقي فسقى الكلب. فشكر الله له فغفر له». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر»^(١١٧).

الله أكبر. إذن، العبادات والمعاملات لها أثر إيجابي في نحو الإنسان لسيئات نفسه وما يلقي من معصية الله ليلاً ونهاراً.^(١١٨)

^(١١٦) أخرجه البخاري (٢٣٦٣) ومسلم (٢٢٤٤).

^(١١٧) قال الإمام ابن عبد البر رحمه الله: في هذا الحديث أن في الإحسان إلى البهائم المملوكات وغير المملوكات أجراً عظيماً يكفر الله به السيئات، والدليل أن في الإساءة إليها وزراً بقدر ذلك، لأن الإحسان إليها إذا كان فيه الأجر ففي الإساءة إليها - لا محالة - الوزر. ("الاستذكار" / ٨ / ص ٣٧٠).

^(١١٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بيننا كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فتزعت موقها فسقته فغفر لها به». (أخرجه البخاري (٣٤٦٧)).

وعن سهل بن الحنظلية الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ... وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة فمر ببعير مناخ على باب المسجد من أول النهار، ثم مر به آخر النهار وهو على حاله فقال: «أين صاحب هذا البعير فابتغي» فلم يوجد. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتقوا الله

نسأل الله أن ينفعنا بما سمعنا وأن يرزقنا علماً بما ينفعنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١ ذو القعدة ١٤٣٦ هـ

في هذه البهائم ثم اركبوها صحاحا واركبوها سمانا» كالمسخط آفنا. (أخرجه الإمام أحمد بن حنبل (١٧٦٦٢) وصححه الإمام الوادعي رحمه الله في "الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين" (٢٢١٠)).

قال الطيبي رحمه الله: فيه ترغيب إلى تعهدا بالعلف لتكون مهياة لائقة لما تريدون منها، فإن أردتم أن تركبوها فاركوها وهي صالحة للركوب قوية على المشي، وأن أردتم أن تتركوها للأكل فتعدوها لتكون سميئة صالحة للأكل. (كما في "مرواة المفاتيح" / ١٠ / ص ٣٦٧).

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم خلفه فأسرّ إليّ حديثاً لا أخبر به أحداً أبداً. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب ما استتر به في حاجته هدف أو حائش نخل، فدخل يوماً حائطاً من حيطان الأنصار، فإذا جمل قد أتاه فجر جر وذرفت عيناه. فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حنّ وذرفت عيناه فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم سراته وذفراه فسكن، فقال: «من صاحب الجمل؟» فجاء فتى من الأنصار فقال: هو لي يا رسول الله. فقال: «أما تتقي الله في هذه البهيمة التي ملككها الله؟ إنه شكّا إليّ أنك تحببه وتدّبه». (أخرجه الإمام أحمد (١٧٤٥) وصححه الإمام الوادعي رحمه الله في "الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين" (٢٢٦٤)).